

عوامل اكتناف البلاغة العربية بالتّعقيد والغموض

Factors involved in Arabic rhetoric with complexity and ambiguity

الدكتورة: بلخيري صليحة

جامعة العلوم الإسلامية (الجزائر 1) – الجزائر.

ملخص البحث:

يهدف هذا الموضوع إلى إبراز أهم العوامل التي أدت إلى تطور البلاغة العربية، نتيجة جهود عظيمة لعلماء اختلفت تخصصاتهم ومجالات أبحاثهم، فمنهم النحوي، واللغوي، والناقد، والأديب، والفلسفي، والمتكلم....

فيا ترى ماهي أهم البيئات التي ساهمت في تطور البلاغة العربية، وكيف ظهر التعقيد والغموض في البلاغة. وكيف تداخل علم البلاغة مع العلوم الأخرى؟
الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، التعقيد، الغموض، التداخل.....

ABSTRACT:

This topic aims to highlight the most important factors that led to the development of Arabic rhetoric, as a result of great efforts by scholars with different specializations and fields of research, including the grammarian, linguist, critic, literary, philosophical, and speaker....

So, what are the most important environments that contributed to the development of Arabic rhetoric, and how complexity and ambiguity appeared in rhetoric. How does the science of rhetoric overlap with other sciences?

Keywords: Arabic rhetoric, complexity, abstraction, overlap.

المؤلف المرسل: بلخيري صليحة

البلاغة ليست أمرا مستقلا عن اللغة، بل هي الأمر الذي يساعد اللغة على أداء وظيفتها التي هي التعبير أو الإبلاغ، وهي شاملة لعنصري اللغة من اللفظ والمعنى.

ونشير إلى أن البلغاء الذين أخذت عنهم البلاغة من كلامهم وعرفت في أساليبهم، قبل أن تعرف في حدود المؤلفين وتعريفات المصنفين، كانوا ينظرون إلى البلاغة على أنها الوسيلة إلى الإعراب عمّا يجيش في النفس بصورة تمنع سوء التعبير، وسوء الفهم، وتصل بالمعنى إلى القلب.

ولاشك في أنها مساوية للغة، إن لم تكن هي نفسها؛ لأنه إذا كانت اللغة هي وسيلة التفاهم بين الناس، فإن كل ما يؤدي إلى هذه الغاية أو يعين على بلوغها فهو جزء من اللغة متمم لها، وقيمتها من قيمتها.

وإن ما أحسنه البليغ من شروط فرعاه، وما رآه العربي في الكلام من جمال فأعجب به واستحسنه، أو قبحه فنفر منه، وما وصف به المجيدين من أصحاب البيان، أو ما أخذ عليهم من تقصير أو زلل، كل ذلك كان نواة للعلم الذي تطوّر حتى استقل وعُرف فيما بعد بعلم البلاغة العربية.

هذا وقد نادى علماؤنا الأقدمون بالبلاغة الميسرة، والابتعاد كل البعد عن الألفاظ الوعرة الدالة على التكلف والتّصنع. فهذا هو ابن المقفع يقول: "لا خير في كلام لا يدلّ على معنالك، ولا يشير إلى مغزاك"¹. وقال بشر بن المعتمر: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من المعاني الخاصة، وكذلك ليس يتضّع بأن يكون من المعاني العامة، وإنما مدار الشّرف على الصّواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"².

وقال أيضا: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل من ذلك مقاما..."³. والجاحظ قد لخص كل ما قيل في: "ودار اللائمة، ومستقر المذمة، حيث رأيت بلاغة يخالطها تكلف"⁴.

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، نج، عبد السلام هارون، دار الجليل (بيروت)، 1416هـ، 1995م، 1/116.

²⁻³ - المصدر نفسه، 1/136، 137.

⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، (د ت ن). 2/ 18.

عوامل اكتناف البلاغة العربية بالتّعقيد والغموض

وبما أن تطور البلاغة العربية جاء نتيجة عوامل كثيرة منها قضية إعجاز القرآن، وظهور فرق كثيرة أرادت الدّفاع عن إعجازه متخذة من اللغة العربية وسيلة لذلك، وربما أدى ذلك إلى ظهور التّكلف والتّصنع وبعض التعقيد في بلاغتنا العربية، بالإضافة إلى عوامل أخرى كالآثار بثقافات الأمم، والترجمة عنها خصوصا فيما يتعلق بالفلسفة والمنطق اليوناني..... يقول أمين الخولي: "والقول باشتراك بيئات مختلفة الطّابع، متفاوتة المنهج في دراسة البلاغة العربية، قول قديم، شعر به الأولون أنفسهم، وقضت به اعتبارات اجتماعية، وعلمية"⁵.

وسأتكلم باختصار عن أهم البيئات التي ساهمت في تطور البلاغة العربية، وربما أدى ذلك إلى ظهور الدّخيل من الألفاظ في البلاغة العربية، بالإضافة إلى استعمالها في غير موضعها المتعلق بالتّدوق والجمال الفني، وإدراجها في علم الكلام والمنطق والفلسفة.... مما أفقدها البعض من قيمتها الأدبية .

نشأة البلاغة في بيئة المتكلمين:

يعتبر علم الكلام واحدا من أهم العلوم التي احتضنت نشأة البلاغة العربية وتطوّرها، وذلك لحرص علماء الكلام أنفسهم، على حذق فنون البيان والتّمرس بأساليب القول وطرقه، حتى يتمكّنوا من شرح عقائدهم الكلامية وإيصالها إلى النّاس والدّفاع عنها بأحسن طريقة.

وثاني أمر هو يتعلّق بتلك الدّراسات والبحوث حول الإعجاز القرآني، حيث أسهمت جهود المتكلمين الكبار...وفي مقدمتهم المعتزلة والأشاعرة إلى لفت الأنظار، إلى جوانب الإعجاز القرآني وما حواه من قيم بلاغية وبيانية⁶.

كما أنه يمكننا القول: "إنّ النّواة الأصلية لنشأة علوم البلاغة، كانت في أوساط المتكلمين الذين كانوا يعنون عناية فائقة باكتشاف الطّرق والأساليب الصّحيحة لإيراد الكلام؛ فأقوالهم وخطبهم كانت قائمة على أسس بلاغية ومنطقية صحيحة، فظهرت على ذلك اهتماماتهم بأساليب البيان الصّحيح وطرق اختيار المعاني والألفاظ، ودراسهم

⁵ - أمين الخولي، فن القول، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م. ص 117 .

⁶ - ينظر: أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي - القاهرة - 1990م . ص 08.

لمواصفات وشروط المتكلم والخطيب، لكي يكون كلامه مؤثرا ومقبولا لدى المخاطبين. وكل هذا كان بمثابة الأصل والنواة لقيام العلوم البلاغية⁷.

وقد اهتم المتكلمون بالدرس البلاغي، وعُنوا بمسائله، لأن البلاغة العربية من أهم أدوات قراءة النص القرآني، والوقوف على فهمها وإتقان مسائلها أمر ضروري لاستجلاء غوامض النص وحفظه من التأويل الخاطئ لآياته، وما يرمي إليه. فمن أراد الوقوف على الصحيح من معاني القرآن والسنة وأمثال العرب، فعليه أولا الوقوف على أسرار البلاغة العربية لأن: "للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخرى ولها حينئذ دلالات أخرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن. هلك وأهلك"⁸.

وما ذكر أدّى بعلماء الكلام إلى فهم كتاب الله، وبيان ما فيه من فنون بيانية، وقد جادلوا في تعبيراته، وأداهم هذا الجدل إلى التنافس اللفظي، والبحث في قضايا البلاغة. وربما كثرة الجدل والتنافس اللفظي، أدى إلى ظهور بعض التعقيد في المصطلحات البلاغية؛ لأنهم استعانوا بالمنطق والفلسفة لإثبات ما يقولون. نشأة البلاغة في بيئة الأصوليين:

هم أصحاب الصنعة القانونية في فهمهم للشرع الإسلامي، واستخراج أصول التشريع من عباراته. وهم يقدمون بين يدي عملهم في أصول الفقه مقدمة واسعة الرّحاب يسمونها المبادئ اللغوية، يلمون فيها بأبحاث لغوية، صرفية، اشتقاقية، نحوية، بيانية، ولايزال أصحاب كل علم من هذه العلوم يمدون الأصوليين فيه مما ينبغي الاتصال به، والوقوف عليه، وفاء بحق الدرس، وتقديرا لنزعتهم العلمية، في تناولهم لهذه المسائل.

ومن الناحية البلاغية نعرف أن هؤلاء الأصوليين قد عرضوا في مبادئهم اللغوية للبحث في الحقيقة والمجاز، والتشبيه والكناية، وما إلى ذلك من أبحاث البيان المعروفة، كما تحدثوا عن أشياء مما يتصل ببحث أجزاء الجملة في علم المعاني، وفي حديثهم عن

⁷ - فالج الربيعي، تاريخ المعزلة فكرهم وعقائدهم، الدار الثقافية (القاهرة) ط1، 1421هـ، 2001م. ص 50.

⁸ - ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، (د م ط) و (د ت ن). 447/2.

عوامل اكتناف البلاغة العربية بالتّعقيد والغموض

العموم والخصوص، عرضوا للتذكير والتعريف، واستغرق المفرد واستغرق الجمع، والحصص...

كما تحدثوا عما يمت هذه المباحث اللفظية بصلة قوية من القول بالترادف، والاشتراك، والتواطؤ، بل إن تعرضهم للمسائل البلاغية من المعاني والبيان، قد انتهى بهم إلى تناول نواح لم يستوفها أصحاب البلاغة أنفسهم، من نحو كلامهم في الجمع بين الحقيقة والمجاز، وعموم المجاز، وأن المجاز أولى من الاشتراك.....

وتلك الأبحاث البلاغية في المدرسة الأصولية، هي التي جعلت "السكاكي" يشير إلى استثناء علم أصول الفقه بأبحاث علمي المعاني والبيان. فيقول: "بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي؟ وم يتولاها"⁹.

وقال السبكي: "واعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل، فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هو موضوع غالب الأصول، وإن كل ما يتكلم عليه الأصولي من كون الأمر للوجوب والنهي للتحريم، ومسألة الإخبار والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والإجمال والتفصيل والتراجيح، كلها ترجع إلى موضوع علم المعاني، وليس في أصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع الحكيم عن غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة"¹⁰.

وهؤلاء الأصوليون إنما غايتهم خدمة الجانب العلمي من الاجتهاد في استخراج الأحكام، واستعمال القياس في ذلك، على أساس من التنظيم المنطقي في هذا الاستنباط، والقياس.

كما أنهم قد استعانوا بالفلسفة والمنطق حين تحدثوا عن الحاكم، ومن هو؟ ونظروا إلى القبح والحسن للأشياء والأفعال. فكان هذا الاتصال بالمعاني والأغراض الفلسفية، عملاً قوياً في سيطرة المنهج العقلي النظري، وتحكم الأسلوب المنطقي في تفكيرهم ودراساتهم. وكل ما ذكرت تأثرت به المباحث البلاغية ومسائلها، إلى جانب ما كان عليه المجتمع ومتطلباته آنذاك، تجعل من متعلّمي البلاغة ومعلميها يأخذون بما لا بد من الأخذ به.

- قضية الإعجاز القرآني

⁹ - السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان - ط2، 1407هـ، 1987م، ص 119.

¹⁰ - السبكي، عروس الأفراس، تعليق، عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط1، 1423هـ، 2003م، 53/1.

إنّ قضية الإعجاز القرآني كانت سببا مباشرا في البحث عن النّظم القرآني باعتباره كتابا معجزا متحدّيا لما ألفه العرب من كلامهم، وذلك لما حمله من أساليب بلاغية تفوق خيال العرب ومحاسن كلامهم، "ولعل أول ما ظهر من الكلام في القرآن وإعجازه بالنسبة للمسلمين، كان على يد الجعد بن درهم، الذي صرّح بالإنكار على القرآن وجحد أشياء مما فيه، وأضاف إلى القول بخلقه أن فصاحته غير معجزة، وأنّ الناس يقدرّون على مثلها وعلى أحسن منها، ولم يقل بذلك أحد من قبله"¹¹.

وفي ظلّ حركة الفتوح الإسلامية، وامتزاج ثقافة العرب بغيرها، أخذ الإسلام يتعرض لحركة قوية من الطّعن والتّشكيك من قبل أصحاب الدّينانات القديمة، وقد كان طبيعيا أن يتجه هؤلاء الطّاعنين إلى كتاب الله عزوجل، الذي أحدث تلك التّهضة وأدال من دولهم وأديانهم.

وقد كان مما شككوا فيه مواطن إعجاز هذا الكتاب المقدّس، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا هو الذي دفع بعلماء الإسلام، وخصوصا منهم المتكلّمين إلى دراسة القرآن والبحث في مواطن إعجازه، للتّصدي لهؤلاء الملاحدة، أعداء الدّين، والرّد على تساؤلاتهم التي أثارت البلبلة آنذاك.

وفي ظل تلك المجاهمة الدّينية ضد التّطرف، والإلحاد، والزندقة لتك الدّينانات، أدلى:

إبراهيم النّظام- وهو ممن حملوا لواء الاعتزال بعد واصل بن عطاء- برأيه في الإعجاز القرآني، بعد أن قرأ في كتب الفلاسفة، واتصل بالثقافات الفارسية، والهندية، واليونانية، كما تعلّم المسيحية ولاهوتها، وكان يميل في علمه إلى التّجربة والقياس، ولا يقبل التّسليم بالمنقول والمأثور"¹². فقال: «الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، وأمّا التّأليف والنّظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد»¹³.

وقد نقل الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل"، رأي النّظام في الإعجاز القرآني فقال: "قول النّظام في إعجاز القرآن أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة

¹¹ - ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، (بيروت، لبنان)، ط9/ 1973م. ص 141.

¹² - صلاح الدين محمد عبد التّواب، دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن، دار الكتاب الحديث (القاهرة، الكويت، الجزائر)، 1423هـ، 2003م. ص 21.

¹³ - أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين عبد المجيد، المكتبة العصرية صيدا -

بيروت- 1419 هـ، 1999م. / 296.

عوامل اكتناف البلاغة العربية بالتعقيد والغموض

صرف الدّواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبرا وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغة، وفصاحة، ونظما"¹⁴.

وقال البغدادي: "أنكر النّظام إعجاز القرآن...ومن فضائحه قوله: إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا دلالة على الصّدق في دعواه النبوة، وإنما وجه الدّلالة منه صدق ما فيه من أخبار عن الغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه، من النظم والتأليف"¹⁵.

فالقول بالصّرفة يؤدي إلى أن كلام الله كلام عاديّ يشبه كلام البشر، وهو ليس في الدّرجة العالية من البلاغة والفصاحة التي تمنع الناس من محاكاته، والمقدرة على الإتيان بمثله، وهو قول خطير حاربه العلماء بدراستهم للقرآن وبلاغته.

ولقد ردّ الإمام الزركشي على قول النظام بالصّرفة فقال: "وقوله فاسد بدليل قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ (الإسراء:88)، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم. ويلزم القول بالصّرفة فساد آخر، وهو زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي، وذلك خرق لإجماع الأمة"¹⁶.

والنّظام برأيه هذا فجّر مقولة خطيرة زادت من فُرقة المسلمين، وشتت وحدة تفكيرهم. وبين مؤيد لهذه الفكرة وبين معارض لها، أصبح الصّراع العلمي، والثقافي، والدّيني- في هذه الحال- ليس بين المسلمين وأعدائهم فحسب، بل بين المسلمين أنفسهم، فكان أن نشأت الدّراسات العلمية حول القرآن الكريم وإعجازه.

وعليه؛ فإن قضية الإعجاز القرآني قد عاشت حياتها الأولى في أكناف المتكلمين، وعلى عين منهم، إذ كانوا يومئذ يمثلون جهة الدّفاع عن الإسلام بما يثار حوله من شكوك وما يتعرض له من هجوم. كما تمكنوا من استخراج فنون بيانية جديدة أضافوها إلى جهود الذين سبقوهم من الرّواة والشّعراء والنقاد، وتحولت على أيديهم

¹⁴ - الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا، علي حسن فاعود، دار المعرفة - بيروت، لبنان - ط6، 1417هـ، 1997م. 1/

70.

¹⁵ - البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، ط1417هـ، 1997م. ص 137.

¹⁶ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل - بيروت، لبنان - 1408هـ، 1988م. 2/ 94.

تلك الدّراسات النظرية التي يستهدف فيها التحديد والاستظهار والاستشهاد، إلى دراسات علمية يثار فيها جانب العقل والتفكير، وتستثار فيها ملكة الملاحظة.

هذا وإنّ الدارس لمصنفات إعجاز القرآن، على اختلاف مذاهب أصحابها، يلاحظ بأنّها قد جاءت أشبه بمباحث بلاغية، ذلك لأنّ مصنفها قد اتجهوا إلى الدّرس البلاغي احتجاجاً لنظمه وإثباتاً لإعجازه .

- قضية اللفظ والمعنى:

كانت هذه القضية على رأس القضايا البيانية التي استأثرت اهتمام المتكلمين، واللغويين، وعلماء أصول الفقه، في فترة من أزهى عصور الثقافة العربية، من القرن الثالث إلى الخامس الهجري، حيث كانت المفاضلة بين اللفظ والمعنى، في العملية البيانية البلاغية مناط الاهتمام آنذاك.

وقد عالج النقد العربي القديم هذه الثنائية في سياق مباحث كثيرة ومتنوعة ومتداخلة، تتعلق ببنية النصّ الشعري وجماليته، وبالتداخل النصّي والسّرقات الشعرية وغيرها. هذا وإنّ الجدل بدأ يزداد حول هذه القضية- اللفظ والمعنى- منذ أن قال الجاحظ مقولته المشهورة: " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع، وجودة السّبك..."¹⁷.

فالجاحظ "بالإضافة إلى رأيه في أقسام البيان عامة، وملاحظاته المتعلقة بالظاهرة اللّغوية... تمتد تصوراتُه الأسلوبية ومقاييسُه البلاغية في رسوخ نظريته في الكلام... التي تقدر أن الكلام هو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد"¹⁸؛ أي أن الكلام ما هو إلا مظهر عملي تطبيقي للغة المجردة القائمة في نفس الإنسان.

وفي الظّاهر أن الجاحظ ينتصر للفظ على حساب المعنى، والحقيقة هي أن الجاحظ كان من أصحاب المشكلة والمطابقة بين اللفظ والمعنى. بقوله: "الأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدنّ، والمعنى للفظ روح"¹⁹. وهذا ما وضحه أكثر

¹⁷- الحيوان، الجاحظ، 3/ 130، 131.

¹⁸- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، منشورات كتاب اتحاد الكتاب العرب، دمشق - 2001، ص39.

¹⁹- رسائل الجاحظ، تح، عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت - ط1 1411هـ، 1991م، 1/ 162 .

عوامل اكتناف البلاغة العربية بالتعقيد والغموض

كتابه البيان والتبيين: "مَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيماً فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظاً كَرِيماً، فَإِنْ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفُ لِلْفَظِّ الشَّرِيفِ"²⁰.

أما عبد القاهر الجرجاني(471هـ)، فقد كان لتأخره زمنياً عن كل المذاهب الأثر الإيجابي في اطلاعه على مختلف الآراء النقدية التي قيلت حول هذه القضية؛ حيث "اجتمعت لديه آراؤهم، وأفاد من خبرتهم، ولكنه تجاوزهم إلى رأي خاص، وكانت له في هذا المجال أصالة وتعمق، وكان صاحب مدرسة في النقد، أدرك فيها ما لم يدرك النقاد"²¹.

وقد تناول هذه القضية في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وانتهى إلى أن "الألفاظ خدم للمعاني... فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته"²². حيث صاغ فلسفته البلاغية التي جعل محوراً نظريته في النظم التي ربط فيها بين اللفظ والمعنى وبين دلالة الألفاظ الأسلوبية ودلالاتها الثانوية، وجعل النظم وحده هو مظهر البلاغة ومثار القيمة الجمالية في النص الأدبي.

وأقول بأن الهدف من دراسة قضية نقدية بحجم قضية اللفظ والمعنى، ليس هو فقط جرّداً لأقوال العلماء والنقاد، بقدر ما هو اطلاع على الفكر العربي القديم في عمومته؛ وإن العبارة التي قالها الجاحظ وقد أثارت الجدل قد جاءت كردّ على تلك الحملة القوية من اتجاه التجديد، الذي كان قائماً على تحرير المعنى، واصطياد الأفكار الفلسفية والغوص وراءها. فكانت حملة الجاحظ على المعنى لإنقاذ الصياغة العربية، لأن معناه ضياع التراث العربي من جهة، ثم طمس معالم الطريق من جهة أخرى.

ولولا هذا التدبير البارع لما وقف المتجهون إلى هذه الوجهة الجديدة عند حد، ولذهبوا فيه إلى أبعد مدى، ثم لأصبحت اللغة العربية أثراً بعد عين، ولأخذها الزمن بما أخذ به كثيراً غيرها من اللغات التي درست وذهبت آثارها ومعالمها.

- حذق فنون البلاغة لنشر العقائد والدفاع عنها

علم البلاغة أصبح وسيلة للدفاع عن آراء وبسط العقائد، وقد عرض المعتزلة والأشاعرة الكثير من الصّور البيانية في كتبهم نافذين من خلالها إلى الرد على مخالفهم

²⁰ - الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 136.

²¹ - مصطفى عبد الرحمان، في النقد الأدبي القديم عند العرب. مكة للطباعة 1998، ص 198.

²² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، شرح وتعليق: عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، دار الجيل (بيروت)، ط1، 1411هـ، 1991م، ص 26.

نقضا لشبهاتهم، ودفعا لأرائهم، والتي أرجعوها في الكثير من الأحيان إلى جهل المخالفين لوجود التعبير العربي، ودلالات الألفاظ البلاغية.

بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى بناء النظريات البلاغية على أصول عقائدية، وأبرز مثال على ذلك القول في إعجاز القرآن، هل هو راجع إلى فصاحة الألفاظ؟ أم راجع إلى النظم؟

ومن هنا اختلفت الآراء باختلاف المنطلقات العقيدية، فقول المعتزلة بإعجاز اللفظ، راجع إلى قولهم بخلق القرآن، على عكس الأشاعرة الذين يقولون بأن الإعجاز وصف يرجع إلى الصياغة والتأليف، بسبب دقاتق بلاغية في الصياغة والنظم، فيقول عبد القاهر: "إن هذا الوصف - الإعجاز - ينبغي أن يكون وصفا قد تجدد بالقرآن، وأمر لم يوجد في غيره، ولم يعرف قبل نزوله، وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة - التي هي أوضاع اللغة - قد حدثت في حذاقة حروفها، وأصواتها، أوصاف لم تكن لتكوين تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت في أنفسها هيينات وصفات يسمعون السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن، ولا يجدون لها تلك الهيينات والصفات خارج القرآن، ولا يجوز أن تكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة؛ لأنه يؤدي إلى أن تكون قد تجددت في معنى الحمد، والرّب، ومعنى العالمين، والملك، واليوم وهكذا، وصف لم يكن قبل نزول القرآن، وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من المحال وأشنع، لكان إياه"²³.

فاكتساب هذه الألفاظ لمعان جديدة لم تكن توهم اكتساب الله تعالى لصفات لم تكن فيه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، يقول شوقي ضيف معلقا على القول السابق لعبد القاهر: "فالألفاظ المفردة سواء من حيث أصواتها، أو من حيث معانيها لا تدخل في إعجاز القرآن البلاغي، وبالتالي لا تدخل في الفصاحة؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن الألفاظ معجزة بأوضاعها اللغوية وما يطوي فيها أصواتها، وزنة حركاتها وسكناتها، ولو صحّ ذلك لبطل إعجاز القرآن، وإن هذا الإعجاز شيء تجدد بنزوله بعد أن كان معدوما، وحدث بعد أن كان مفقودا"²⁴.

²³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، شرح وتعليق: عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة (مصر)، ط1، 1969. ص284.

²⁴ - شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، ط4، 1965م. ص69.

عوامل اكتناف البلاغة العربية بالتعقيد والغموض

إذا فقد عمد الكثير من العلماء إلى موضوعات البلاغة، لتقرير عقائدهم، والدِّفاع عنها، كما لجأوا إلى المجاز اللغوي حتى يتسع أمامهم القول، وحتى يفلتوا من تلك القيود التي ألزمهم بها المجسمة وغيرهم من الطوائف، وبخاصة المعتزلة؛ حين عالجوا التشبيه في القرآن الكريم، ولقد هاجموا اللغويين والمفسرين البسطاء، الذين يلتزمون ظاهر اللفظ، وراحوا يتزهون الذات الإلهية عن كل ما ينالها من حسية، وجنحوا إلى الصُّور الذهنية والخيالات المتضمنة، ليرزوا معانيها البعيدة في نفوس الناس، وكانت عُدتهم في ذلك المجاز اللغوي .

هذه الأسباب وغيرها كانت سببا في نمو الدرس البلاغي، وفي نفس الوقت زادت من تعقيده.

الخاتمة:

أختم القول بأن تطور البلاغة العربية جاء نتيجة عوامل كثيرة منها قضية إعجاز القرآن، وظهور فرق كثيرة أرادت الدِّفاع عن إعجازه متخذة من اللغة العربية وسيلة لذلك، وربما أدى ذلك إلى ظهور التكلّف والتّصنع وبعض التعقيد في بلاغتنا العربية، بالإضافة إلى عوامل أخرى كالتأثر بثقافات الأمم، والترجمة عنها خصوصا فيما يتعلق بالفلسفة والمنطق اليوناني.....

وبأن هناك بيانات كثيرة التي ساهمت في تطور البلاغة العربية، وربما أدى ذلك إلى ظهور الدّخيل من الألفاظ في البلاغة العربية، بالإضافة إلى استعمالها في غير موضعها المتعلق بالتذوق والجمال الفني، وإدراجها في علم الكلام والمنطق والفلسفة....مما أفقدها البعض من قيمتها الأدبية .

وكل ما ذكر أدى إلى ظهور علم مستقل بذاته هو علم البلاغة العربي.رغم مالحقه من غموض في مصطلحاته، وخروجه عن الذوق الفني.